الوجه الحضاري للأدب الإسلامي*

إن الفن والإيديولوجية، يشكلان قضية تبدو معقدة : لأن النظرة السطحية تتوهم تنافرا أو تضادا بينهما، انطلاقا من المفهوم السائد لدى البعض، حين يقولون : إن الفن حرية، والعقيدة التزام . والعلاقة بين الحرية والالتزام حسبما يتوهمون، علاقة بين قطبين متنافرين، والواقع أن الذين روجوا لهذا التصور السقيم وقعوا في خطأ التجزئة، وخرجوا عن صميم التجربة الحية، والممارسة التاريخية، ونسوا - أو تناسوا - أن روائع الفن ارتبطت بما تحمله من مضمون فكري رائد، أو عقيدة مؤثرة، وشاركت بإيجابية في تطوير نمط الحياة والسلوك، وساهمت في إثراء الحضارة الإنسانية بمظاهرها المتعددة، وهم أنفسهم لو تعمقوا مفهوم الحرية ذاتها لوجدوا أنها ضرب من الالتزام والانتماء . وهنا يجب أن ندرك أن الحرية ليست الانفلات والعبثية والتحلل من كافة القيم، والانطلاق في تيه من الرغبات والنزوات، والتعويل على صور من السلوك تمثل الأنانية والانغلاق الذاتي.

بقلم : د . نجيب الكيلاني
مصر

والأدب الإسلامي كلون بارز من ألوان الفنون، ينظر إلى الكون ومفرداته، أو إلى الحياة وحركتها وإلى المخلوقات وصراعاتها، نظرة يحكمها التصور الإسلامي، والالتزام العقائدي ويحلل بصدق همسات النفس، وأشواق الروح، وتفاعل الفكر، وتوهجات السمو الإنساني، وتدنيات اليأس والألم والحيرة، وينتصر لقيم الحق والخير والجمال، في الإطار الفني الناجح، وفي نسيج من الصدق، ويجعل من الفن والالتزام كيانا واحدا، لا انفصام فيه ولا تمزق أو تضاد.

وانطلاقا من هذا الفهم، تدفقت ينابيع الأدب الإسلامي، حافلة بالصور الحضارية المتماسكة، تلك الصور التي تتفاعل مع الواقع والتاريخ، في كل عصر وصقع.

لقد توهم البعض من أصحاب النوايا الحسنة، أن الأدب الإسلامي يحفل أساسا برصد البطولات الفردية وحدها . ونيران المعارك الحربية، وتدمير قوى الكفر ومعاقل الطغيان، وقد يكون لهذا الجانب أهميته، لكن الأدب الإسلامي الصحيح يركز أساسا على ما يمكن أن نسميه «قيم الحضارة الإنسانية»، إنها مفهوم أعم وأشمل، وهو في نفس الوقت تمثل « عميق » وشاسع، إنه يتناول صور الحياة الجديدة المثالية التي ترعرعت في جنباتها قيم الحرية الحقيقية، والشموخ العلمي الباهر، والسموق التشريعي المذهل، والتجربة الصادقة الحية، والانفتاح الواعي على تراث الإنسانية والعصور، والفهم الصحيح للعلائق التي تربط «النموذج» الإسلامي

* مجلة الأمة القطرية، جمادى الآخرة، ١٤٠٢هـ.

بغيره من التجمعات البشرية والأحداث، ولم يكن من قبيل الصدفة، أن يهتم مفكرونا الأقدمون بالاطلاع على تراث الإغريق والرومان والفرس والهند، ويدرسوه بإمعان بل ويترجموه إلى العربية، ويستفيدوا من بعض مصطلحاته وكلماته، دونما عقد نفسية، أو موانع عصبية، لأنهم ببساطة أرادوا أن يثروا العالم بفكرهم وعلمهم، فكان ولا بد أن تبدأ المحاولات الجادة لفهم ذلك العالم وتراثه، حتى يحسنوا التعامل معه، ويعرفوا كيف يدخلون إليه، ويعدون وسائل الإقناع العقلي، لأنه لو كان الأمر مجابهات عسكرية أو حربية، لما كانت تلك الحضارة الإسلامية، ولما كانت تلك «الشخصية» المميزة للإنسان المسلم، رمز المعرفة والعقيدة والقوة والكمال التاريخي، إن صح التعبير .. وإن من يقلب صفحات الشعر والنثر في تراثنا القديم، يجدها نابضة بتلك الملامح الحضارية، ويجدها أيضا في محاورات الفلاسفة، ونفحات الزهد، وقصص الوعاظ، وبحوث العلماء، وروايات المؤرخين، ودقة المحدثين، وتصانيف الفقهاء والمجتهدين، وعبقرية الرياضيين والأطباء، وقد نجد ذلك كله مجتمعا بنسب متفاوتة في بعض عمالقة الأدب الإسلامي، تلك حقيقة لا يصح أن يماري فيها منصف، ولا يصح أن ينال أحد من ذلك التأكيد، لمجرد بروز نغمات نشاز في عالم الشعر والفكر، لأن وجود مثل تلك «الاستثناءات»، هو دليل إثبات، أكثر مما هو دليل نفي، تماما مثل إقامة الحدود على بعض الأفراد الخاطئين لا يعني أن المجتمع بكامله قد ساده الفساد، وانحرف به الجنوح والضلال.

وإذا حاولنا أن نمعن النظر في النماذج المعاصرة للأدب الإسلامي، سوف نجد للأسف - غالبيتها، تهتم بإبراز البطولات الفردية، والمعارك القديمة الطاحنة، وروعة التضحية والفداء، وإن عددا قليلا من كتاب العصر الإسلاميين، يحاولون جاهدين إزالة الغبار عن القيم الحضارية للعقيدة، من خلال أحداث وأنماط بشرية وحوارات مقنعة، أو بمعنى أدق من خلال أشكال فنية عصرية تشكل القصة والقصيدة والمسرحية والتمثيلية والرواية السينمائية وغيرها .

إن السر الأكبر في انتصار العقيدة، وهيمنتها بصورة معجزة، لم يكن بسبب الزحوف العسكرية الكاسحة وحدها، وكانت هذه الزحوف تتحرك أساسا من منطلق عقائدي، هذا المنطلق هو الذي صنع نماذج الرجال الأقوياء، وهو الذي زعزع أركان العدو، وهو الذي أقام حضارة جديدة، ومكن لنمط جديد من السلوك، وأبان عن حقيقة العلاقات التي تحكم حركة المجتمع والأفراد، وأوضح الصلة بين القوى المختلفة، والسلطات القائمة، وحدد هدفا لمسيرة الحياة والأحياء، ومن هذا المنطلق أيضا حاول الأدباء المحدثون الإسلاميون، أن يتناولوا أحداث زماننا، والهزات العنيفة التي تقتحم ديارنا، تناولا صحيحا من خلال المنظور الإسلامي ..

إن الفكر الإسلامي - وكذلك الأدب - ليس انعزاليا بفطرته، وهؤلاء الذين يجسدون تلك العزلة، إنما يقعون في خطأ كبير، مهما كانت الدوافع، ومهما حسنت النوايا، وبديهي أن الأدب الحي لا بد أن يتفاعل .. نعم .. يتفاعل مع أحداث العصر، ومنجزات العلم، ومع المتغيرات الاجتماعية والبيئية، ويرصدها بوعي، ويقف معها في مواجهتها، أي يحدد موقفه منها على ضوء المعطيات الحضارية الإسلامية، لأن الموقف الانعزالي موت، والذوبان في خضم الغزو الثقافي فناء، واللامبالاة بما يجري ضياع وإهدار لفعالية العقيدة، ذلك الضوء الكاشف الذي يمدنا بالقدرة على الرؤية الصحيحة، والتحليل الناجح، والذي يمدنا بالروافد الضرورية لتحديد المواقف .

وإذا كانت البطولات الحربية وحدها دليلا على صدق الدعوة، فسوف نجد أنفسنا أمام أحداث مشابهة في كل زمان ومكان، ورحم الله أمير الشعراء إذ يقول :

إن الشجاعة في القلوب كثيرة

ووجدت شجعان العقول قليلا

ولا أريد في هذه العجالة أن أتناول النماذج الساذجة من الأدب الإسلامي المعاصر، وما في ذلك النتاج من شخصيات مسطحة، ليس لها أبعاد نفسية او اجتماعية أو فكرية، وما فيه أيضا من إهدار للقيم

الفنية، واستخفاف بعقول المتلقين، فهذه كلها أمور تفصيلية يستطيع النقاد أن يتناولوها بمقاييس عادلة دقيقة، في تأن وتمهل ..

ثم، إلى متى يظل الأدب الإسلامي - في غالبيته - محصورا في الواقع التاريخي ؟ هل يفهم من ذلك أن القيم الحضارية للأدب كانت مرهونة بفترات النصر والغلبة ؟

إن انحسار المد الإسلامي لا يعني ذهاب القيم، لأن تلك القيم في واقع الأمر ليست تراثا، بل حياة دائمة، مرتبطة بالأفراد والجماعات، يحملها الإنسان المنتصر والمهزوم، ويلتزم بها في وطنه ومهجره، ويحيا عليها إبان فترات القوة والضعف، ولعلها في وقت الانتكاسات ألزم وأوجب، ويستطيع الأديب المسلم أن يتغنى بها شعرا ونثرا، ويحلم بصورها المثالية، ويرسمها بريشته العبقرية حتى تظل أملا نسعى إليه، ونجاهد من أجله، وفي حياتنا المعاصرة، نجد في كل أرض نماذج مجسمة لتلك القيم العريقة، تتألق في روعة بدور العلم والأبحاث، وعلى سفوح الجبال وشطآن البحار والأنهار وفي الحقول والمصانع والغابات، وفي لهيب المعارك الضارية،، وفي أروقة السياسة والاقتصاد والفلسفة، إنهم في كل مكان في مدن أمريكا وأوربا وآسيا وأستراليا ... وعلى الأقلام المقيدة أن تحطم القيود، وتنطلق إلى تلك الآفاق الرحبة، وتعبر بصدق وقوة وأمانة عن رجل التوحيد .. وعن أمة التوحيد .. وعن الآمال التي تخفق في قلب ألف مليون مسلم، ما زالت غالبيتهم تنهل من الينابيع الصافية التي تتدفق عبر الزمان بالخير والعطاء، والذين يتنكرون لهذه الحقائق من المؤرخين والنقاد والمحللين السياسيين إنما يتورطون في خطأ تاريخي فادح، ويجافون العدل، ويظلمون الواقع .

وإذا كانت الحضارة فكرا وممارسة، أو عقيدة وعملا والتزاما، فإن مسؤولية الأديب المسلم أخطر بكثير مما يتصور البعض، وإذا كنا قد قررنا في البداية أن الفصل بين الفن والأيديولوجية خطأ جسيم، وخروج عن منطق الممارسة والعلم، فإننا نقول أيضا: إن الأدب الإسلامي الصحيح جزء لا يتجزأ عن الواقع وحركة الحياة والعمل الدائب ﴿ كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تعملون ﴾ (الصف : ٣) .

والواقع المرير أن محترفي النقد في أمتنا، لم يعطوا هذا الجانب حقه من الاهتمام والمتابعة والدراسة، فضلا عن أن صفحات المجلات والصحف لا تفسح صدرها إلاّ للقليل جدا، وعلى الرغم من الملايين التي ترصد في مسابقات نجوم السينما والمسرح والفنون التي تتسم بالتبعية والمروق، إلاّ أن الأدب الإسلامي المعاصر يعاني من الإهمال والتجافي والعزلة، ولا يكاد يظفر بالتقييم الصحيح، والتشجيع الذي يستحقه، بالإضافة إلى أن الأدوات التي يملكها الكاتب المسلم لا تستطيع أن تنهض به للمستوى المنشود، وأعتقد أنه قد بات لزاما على الغيورين على الأدب الإسلامي أن يبدؤوا منذ اليوم بعمل الآتي:

أولا : رصد جوائز سنوية للأدب الإسلامي في فروع :

* القصة القصيرة
* المسرحية .
* الرواية .
* الشعر .
* تاريخ الأدب الإسلامي. * نقد الأدب الإسلامي.
* القصة التمثيلية أو السينمائية.

ثانيا : عقد مؤتمر دولي سنوي للأدب الإسلامي.

ثالثا : وضع مواصفات معينة لمادة الأدب الإسلامي في مناهج المدارس.

رابعا: إنشاء أقسام متخصصة للأدب الإسلامي في الجامعات.

خامسا: إنشاء دار نشر عالمية لتأليف وترجمة الأدب الإسلامي .

قد يكون ذلك منطلقا جديدا لتحديد ماهية الأدب الإسلامي، وارتباطه أساسا بقيم الحضارة الإسلامية، مع مراعاة الأشكال الفنية المعاصرة التي لا غنى عنها في أي عمل أدبي ناجح، ولا شك أن ترجمة الآمال إلى خطوات عملية قابلة للتنفيذ، يعتبر بحق مؤشرا من مؤشرات النجاح المرتقب. ■